٥- المعـــــزول

■ الخديوي إسماعيل

تلغراف

" إلى سمو إسماعيل باشا خديوي مصر السابق.

"إن الصعوبات الداخلية والخارجية التي وقعت أخيرًا في مصر قد بلغت من خطورة الشأن حدًا يؤدي استمراره إلى إيجاد المشاكل والمخاطر لمصر والسلطنة العثمانية؛ ولما كان الباب العالي يرى أن توفير أسباب الراحة والطمأنينة للأهالي من أهم واجباته ومما يقضيه الفرمان الذي خولكم حكم مصر، ولما تبين أن بقاءكم في الحكم يزيد المصاعب الحالية، فقد أصدر جلالة السلطان إرادته بناء على قرار مجلس الوزراء بإسناد منصب الخديوية المصرية إلى صاحب السمو الأمير توفيق باشا، وأرسلت الإرادة السنية في تلغراف آخر إلى سموه بتنصيبه خديويًا لمصر، وعليه أدعو سموكم عند تسلمكم هذه الرسالة إلى التخلي عن حكم مصر احترامًا للفرمان السلطاني"

المنشية ١٩٣٨م

أشاح بعينه لأعلى؛ بدأ برفع ذلك الوشاح القماشي عن ذلك التمثال البرونزي، أراد أن يضعه بباحة قصره بعابدين؛ لكنه لم يستطع، استطرد بنظره في ملامح جده الحادة، تؤرقه سيرته أحيانا وتبهجه أحيانا، لكنه شعر بالفخر والفرح عندما أخبره الطليان عن مجسمه هذا، أراد أن يكرمه أو يخلده أو حتى يلملم بعض ماء وجهه الذي تناثرت شظاياه عبر بحار العالم وقاراته، لابد أنه سوف يزور قبر جده إسماعيل، ذلك المسرف المتطور، يخاله امتدادًا لجده الأكبر محمد علي، أو ربما يشعر بأن نهايته ستكون هي نهاية صاحب هذا التمثال الذي يشرع في إزاحة الستار عنه الآن. لا يغفل أبدًا عن قصة صاحب الأريكة الخديوية لسبعة عشر عامًا ونيف.

طالما شعر فاروق بأن عليه رد الجميل لهذا القابع برفاته بمسجد الرفاعي، هناك شيء ما يجذبه إليه أو أنه يخاف من ذاك المصير، يشعر بأن نهايتهما قد تتشابه، لابد أن ذلك التلغراف الذي قرأه عشرات المرات؛ يؤرقه ويشعره بالخوف على كرسيه وتاجه.. كثيرا ما يسأل نفسه هل ينقلب عليه الحال وينفى هو الآخر من موطنه وحياته الألقة هذه؟!، وكأن عباءة الحكم هذه.. عباءة نحسة.

دائما ما يتخذ جده إسماعيل رمزه الأعلى، ولهذا شغف على التحقق من أمر هذه المؤامرة التي أطاحت بسليل عرقه العلوي، ها هو يسأل كل أقاربه ومعارفه ومعلميه، يحاول أن يستجمع بقايا ذكراه، فهم أنه أراد أن تصير مصر بلدة حرة.. قرارها من عقلها، علم أن جده تعشم في أن الباب العالي لن يخذله، ولكنها المصالح، لكن في النهاية يبقى لإسماعيل أنه نال شرف المحاولة، لقد حاول بجد واستماتة أن يؤخر الأمر أو يؤجله ولكن دون فائدة.

٢٩ يونية ١٨٧٩م

- **أفندينا تلغراف**

منـذ أن وصـل إليـه هـذا التلغـراف إلى أبيـه وهـو يشـعر بمشاعر مضطربة بين الفرح والحزن، كل ما كان يتمناه قد تحقق وكل الحزن سيواجهه الآن، لم يتسلمه هو؛ ولكنه وصل إلى عابدين في ضحى ذلك اليوم، وتسلمه قبله ذكي باشا السر تشريفاتي، التي تركن حجرته بالطابق الأول من هذا القصر الفخيم، صدمه عنوان هـذا التلغـراف الـذي قلـب الأمـور رأسًـا على عقـب، أصبح السـيد مطرودًا والمحكوم سيدًا، لـم يكـن وحـده عنـدما تسـلم هـذا النبـأ، كان بصحبة كبار رجال القصر، فهموا أنـه يحـوي شـرًا مسـتطيرًا، بـدأ في القـراءة؛ هنـا وجفـت القلـوب، وعـلا الاضـطراب والاصـفرار، امتنـع عـن حملها للخـديوي، رفـض كل الموجـودين أن يحملـوا ذلـك العبء الثقيل، كُلُ يرمي الأمر على صاحبه حتى حملها شريف باشا رئيس النظار، فعندما تسلم الرسالة، وأدرك ما تحويها، صعد إلى مولاه ليسلم له هذه النكبة، ففضها وتلاها، علم فحواها، فقابلها بالصمت والجلد، رغـم قطـرات الـدموع التي كانـت تتسـاقط منـه غصبًا.

دخل عليه يجر ساقيه يمشي متثاقلا، لا يعرف ماذا يفعل حيال الأمر، الأمر أكبر من أن يتصوره أو أن يمر عليه في حياته، ولكنه تفاجأ من أبيه يناديه:

- **يا أفندينا**

هكذا ناداه والده المعزول، احترقت الدموع في عينيه، كان الأمر جدًا مؤلمًا، ولكنه ما لبث أن سلمه شاراته وخلع عليه سلطات الحكم، لا يعرف من أين أتته تلك القوة وهذا الجلد.

كان يعلم بقرب وصول هذا التلغراف اللعين ولكنه لم يتوقع أن يصل بهذه السرعة، فسابقًا كان يعلم أنهم يدبرون لعزله فاستعان بالأمريكان في جيشه حتى يمنع الأمر، حتى أنه خاف أن يصل خبرهم للسلطان العثماني فأرسل إلى الوفد الذي ذهب لمقابلة الباب العالي:

"قد يستوضحكم الصدر الأعظم أمر القواد والضباط الأمريكيين الذين ألحقتهم بخدمتي. فلكم أن تطلعوه على الظروف التي عينتهم فيها، على أن تلقوا في روعه أنكم تقصدون إليه بهذه البيانات من تلقاء أنفسكم، وأن ترجوا منه كتم سرها. وأنتم ملمون بهذه الظروف، فتعلمون أنني لم أعقد العزم على تعيينهم إلا بعد أن أبلغني مسيو بوريه – بوساطة مسيو تريكو – نية جلالته العمل على عزلي. ولم أستجز كما تعلمون العبث بوعيد خطه سفير فرنسا بيده".

سراي عابدين

لا يعلم من أين علمت كل هذه الجموع المحتشدة بأنحاء تلك السراي، الناس في حالة قيظ عظيم، الأمر يشبه العزاء، الصيحات تتعالى ألما وحزنا، قد يكون البعض فرحًا ولكن الغلبة في حالة يرثى لها، الحشود تثبت أنه محبوب ولكنه سلطان الزمان، يا للعجب، قاتل طوال عمره على حفظ الكرسي لابنه؛ لكنه دون أن يدرك بأن استماتته هذه سوف تكون على جر نعشه، جاءته الضربة من حيث لا يدري ولم يتوقع، لا يصدق بأن ألمانيا هي التي أوقعته من على كرسيه الوثير.

الخيـول والعربـات تتـزاحم والبشـر كالسـواد العظـيم، الأعيان والوجهاء يظهرون الأسى والألم والجواري يولولن والحاشية في متاهة عظيمة لا يعلمون ما سوف يحل بهم، وكل طوائف الخدم والحشـم والخصـيان وكثير مـن نسـاء وجـواري الخـديوي المعـزول يصـحن ويولـولن وهـن يلطخـن الوجـوه ويشـققن الجيـوب ويستصرخن العامة وأبناء السبيل بما تنفطر من سماعه الأكباد وتـذوب لهولـه القلـوب، والجنـد مصـطفون على الجـانبين صـفوفا مسـلحة والبـوق يـنفخ نفخـات الـوداع والحـزن والعامـة بـين بـاك، وطوائف الإفرنج بين شامت وآسف.

اليخت محروسة[1]

خرج الخديوي متكئا على كتف ابنه الخديوي الجديد، وكأنه يصارع الألم، يتحدث في صمت "ما زلت الأقوى وسأظل"، ولكن الركب قد بلغ محطته المنشودة، فترجل المعزول وأردف به الخديوي يودعه، التأثر جلي على المعزول فهو يدرك أنها آخر الأنفاس التي يستنشقها هنا في بلاده، فوقف يودعها ويودع الناظرين فتسارعت الكلمات تخرج من قلبه ونظر إلى فلذة كبده قائلاً:

[1] تم بناء اليخت في عهد الخديوي إسماعيل وذلك لاستخداماته الخاصة، ذلك بعد أن أهدى الخديوي اليخت الملكي "فايد جهاد" للسلطان العثماني عبد العزيز خان بمناسبة قدوم السلطان لمصر لتقديم التهنئة لتولي الخديوي إسماعيل عرش مصر. وقد بدأت شركة "SAMOUDA" بلندن بناء اليخت ببدن من الحديد في عام ١٨٦٣ ميلادية، وتم تدشينه في إبريل عام ١٨٦٥م، وسمي اليخت "محروسة". وكان في ذلك الوقت طوله ٤١١ قدماً (١٢٥ مترًا) وعرضه ٤٢ قدمًا (١٢ مترًا) وحمولته ٣.٤١٧ طنًّا. ويسير بالبخار مستخدمًا وقود الفحم. وكانت وسيلة الدفع عبارة عن بدالات جانبية (طارات). وكانت سرعة اليخت تبلغ ١٦ عقدة. وكان له مدخنتان ومسلح بثمانية مدافع من طراز "أرمسترونج". وسافر طاقم اليخت من المصريين لاستلامه والعودة به إلى الإسكندرية في أغسطس من عام ١٨٦٥م

"لقد اقتضت إرادة سلطاننا المعظم أن تكون يا أعز البنين خديوي مصر، فأوصيك بأخوتك وسائر الآل برًا، واعلم أني مسافر وبودي لو استطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المصاعب التي أخاف أن توجب لك الارتباك، على أني واثق بحزمك وعزمك، فاتبع رأي ذوي شوراك، وكن أسعد حالاً من أبيك ".

على يخته الذي بناه وأوغل في إسرافه؛ كان يأمل أن يكون مصدرًا لبهجته ولكنه تحول إلى مصدرًا لنفيه، تحركت محروسة، فأطلقت طابية كوم الناضورة والسفينة روبرت تحية له وكأنه تكريم نهاية عمره في هذه البلد.

انطلق اليخت وطار الحلم إلى إيطاليا، أقام بالقصر الذي أعده له صديقه الملك أمبرتو، ومنها ظل يجوب البلاد وشد الرحال للأستانة عله يحظى بقرب المحروسة، الذي طالما تمنى الرجوع لها، خاطب ابنه وأحفاده للرجوع لكن دون فائدة.

مات ابنه في حياته، الأمر أشبه بما حدث لجده، يموت الأبناء ويبقى الآباء في تعاسة، لا يستطيعون فعل شيء، مقيد هو بأغلال النفي، الخبر يصعقه، يحطم ما تبقى من مشاعره، أيامه أصبحت قاتمة، أمله الأخير وحلم حياته عودته لمصر، لكن الأمر أصبح بعيدًا، لا يطلب الآن سوى الدفن بين أراضي المحروسة، يريد أن يشم رائحة تراب مصر، حتى إن كان جثة هامدة.

مارس ١٨٩٥م

"يؤسفني إنباء سموكم أن ساعة الاحتضار قد أزفت"

هكذا كانت النهاية التي قرأها عباس حلمي الثاني في ذلك التلغراف اللعين الذي وصله الآن من سفير بريطانيا بالباب العالي، كان في حيرة شديدة واضطراب أكثر بين الألم والحزن والخوف؛ هو الآخر يشعر بأنه سوف يخوض التجربة ويمتطي هذا اليخت محروسة، كان عليه أن ينفذ وصية المعزول، وبدأ الرفاعي يستقبل الرفات العلية ويستعد لاستقبال رفات جديدة ملكية.

❋ ❋ ❋

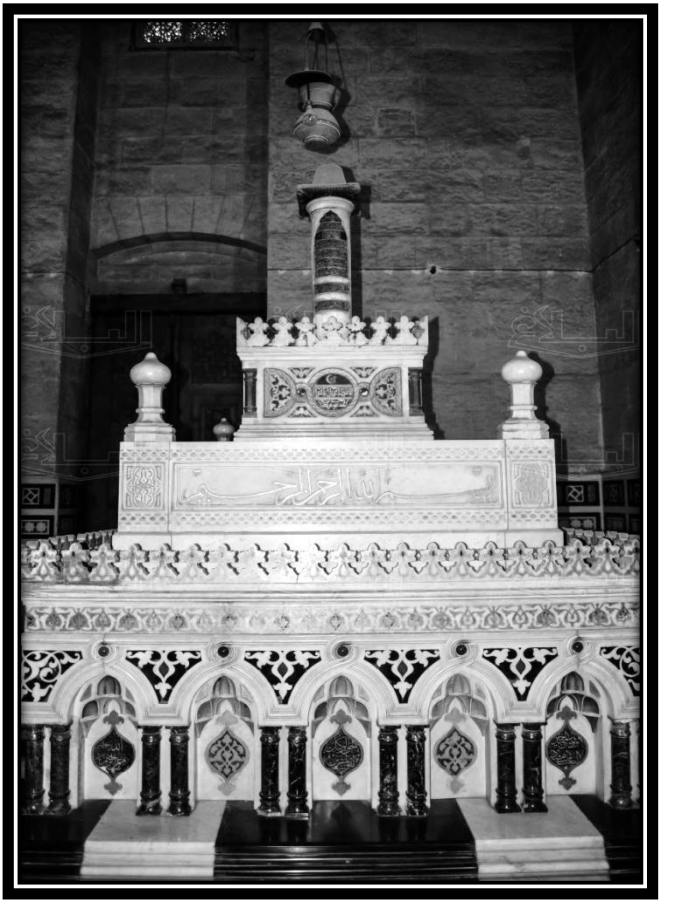

■ ضريح الخديوي إسماعيل | مسجد الرفاعي